أزمة المكان عند محمود درويش في ديوانه كزهر اللوز أو أبعد / دراسة نفسيّة

م. رافد جايد خضير
وزارة التربية / المديرية العامة لتربية ذي قار/ اللغة العربية
Rafidch_81@yahoo.com

الملخص

فكرة البحث:

المكان مفهوم متجذر في الفطرة الإنسانيّة، ومادة وجوديّة، ومعرفيّة للفهم الإنساني، فالمكان هو الانتماء والهوية والذات...الخ؛ فاذا أحس الانسان بسلب هذا المكان اصابه عدم الاستقرار، ونتيجة لعدم الاستقرار هذا يسبب له ازمات شتى؛ من ابرزها (النفسيّة)، ومن هذا المفهوم عمد الشعراء لإدخال (المكان) في نصوصهم الشعريّة لما يمتلكه من طاقة استيعابيّة في البحث عما تكمنه النفس الانسانيّة.

هدف الدراسة:

البحث يحاول أن يكشف عن ما هو مخبوء، ومسكوت عنه في نفس الشاعر درويش في ديوانه (كزهر اللوز أو أبعد)، وكذلك معرفة الكيفية التي تعامل بها في نصوصه الشعرية لمفهوم (المكان) .

منهج البحث:

سلك البحث منهجا نفسيا في دراسته عموما، ليعين في التحليل، والانصات لنصوص الشاعر درويش في ديوانه (كزهر اللوز أو أبعد)، وبيان (أزمة المكان) من منظور نفسي.

مضامين البحث:

- المكـــان والنص الشعري .
- محمود درويش من منظور نفسي (حياته ـ شعره) .
- لغة المكـــان ــ البعد النفسي:
- لغة الذات نفسيا.
- قلق المكان واثره النفسي:
- قلق الحيـاة.
- قلق الموت.
- الخاتمـــة.
- قائمة المصادر والمراجع.
- هوامش البحث.

Mahmoud Darwish's Place Crisis
As Almond blossom(Azzar al-Luz) or further / psychological study

M / Rafid Jaid Khudair
Ministry of Education / Directorate General of Dhi Qar Education

Abstract
Search Idea:
The place is a rooted concept in human instinct and an existential material , and epistemological for human understanding, where the place is a belonging, identity and self ... Etc., If the person senses that he is being stolen of this place he would be unstable and the result of this instability causes him various crises, the most prominent (psychological), and this concept Poets deliberately inserted (the place) in their poetic texts to possess the capacity to absorb the search for what lies in the human soul.
- Purpose of the study:
The research tries to reveal what is hidden, and is silent about it in the soul of the poet Darwish in his book (Azhar al-Luz or further), as well as to know how to he treats it in the poetic texts of the concept (place).
Research Methodology:
The research approach is a psychological in its general study, to be used in analysis, listening to the texts of the poet Darwish in his book (Azzar al-Luz or further), and to show (crisis of place) from a psychological perspective.
Research contents
- Place and poetic text.
-Mahmoud Darwish from a psychological perspective (his life - poetry-.(
-Language of the place - the psychological dimension-.
– language Psychologically .
--Anxiety of the place and its psychological impact.
Life anxiety-.
-Fear of death-.
- Conclusion.-
- List of sources and references
--Search margins.

المكان والنص الشعري

المكان هو الأصل والمسعى للإنسان، الأصل أنه هنا ولد، وترعرع وأشتد عوده، هنا كبر وأصبح شيخاً، وهنا يموت. تقّرُ عين الأنسان برؤية من يحب، في المكان وجدت الحياة، وفُرِضت عليه بما فَرَضت. وهنا المسعى حيث يحب الانسان أن يرى او ما يتمنى. هناك لا مكان يجب أن يكون؛ هنا أو هناك مكانان لجسدٍ واحد لروحٍ واحدةٍ. فجذور الانسان متجذرة في المكان (الاصل) كلما حاولوا تحريكه أبى، فكيف يمكن اقتلاعها؛ أنه ترابط خرافي ازلي كترابط الجسد بالروح فحالما

يستل الموت الروح من الجسد غدا الجسد خاوياً كأي جماد؛ فاذا ضاق المكان تصاغر الكون واضمحل وتسارعت نهاية الزمان. إنَّ الشاعر لديه ادواته الابداعية يسخرها ليكوّن علاقات جدليّة انسانيّة نفسيّة ما بينه وبين الاشياء التي تحيطه، والمكان من بين هذه الجدليات التي خاض وتصارع، وتألم من اجله؛ لأنه يرتبط به ارتباطاً يصل حد التماهي معه و"إن فكرة المكان أعلى من المكان المحدد ولذلك فهي تخضع لجوهر الشعر ويحاول من خلالها الذهاب إلى أقصى ما تتيحه المخيلة البشرية "[١] وقيمة النص الابداعي تكمن بملامسته للواقع الانساني لأن "الوجود الحقيقي للمبدع هو وجوده كجزء يرى ويفعل في كلِّ إنساني. إن الانفصام عن قضية الإنسان ليس إلا اسماً آخر للموت"[٢]. والمكان جزء لا يتجزأ من وعي الانسان حتى يصل إلى درجة التماهي فيما بينهما، فاذا أحس الانسان بأي خطر يمس المكان ينعكس ذلك مباشرة على وجوده؛ فالشعراء انطلقوا من القيمة الوجوديّة والمعرفيّة التي يمتلكها (المكان) في الفهم الانساني فعمدوا على ادخاله في نصوصهم الشعريّة مسخرين عبقريتهم الابداعيّة لتسخير هذا الفهم المكاني في نصوصهم الشعريّة "وفي هذا ما يتيح القول إن الشعر أصل، وليس ظاهرة ثقافية كبقية الظواهر. إنه روح الإنسان. وهو من هذه الشرفة، روح تاريخه. لهذا كان الشعر أسمى أشكال التعبير الإنساني. يعلّمنا كيف يتعانق الزمن والأبد، ويصيران واحداً "[٣] و "إن الشعر بطبيعته، يرفض القيود الخارجية، يرفض القوالب الجاهزة والإيقاعات المفروضة من الخارج، وهو يتيح طواعية شكلية إلى أقصى حدود التنوع، بحيث أن القصيدة تخلق شكلها الذي تريده، كالنهر الذي يخلق مجراه "[٤] إنَّ المكان واثره النفسي أخذ حيزا واسعا وحركيّة في النص الشعري؛ لأنّ كل اثر نفسي على الإنسان له تبعاته وارهاصاته على الوعي، واللاوعي الانساني الذي يصعب فهمها كليا؛ لأنه يبحث في ما هو مخبوء في النفس، ولعلّ اللغة الشعريّة قد تنطق وتوضح بعض هذه الانفعالات النفسيّة الانسانيّة في هذا العالم الفسيح، و"تعبر انفعالات النفس بشكل طبيعي عن الأشياء، إنها تمثّل نوعاً من اللغة الكونية التي ما أن تتشكل حتى تتمحى بذاتها "[٥]. وتظلّ العلاقة ما بين المكان والنص الشعري علاقة وثيقة قد تصل إلى درجة التماهي.

محمود درويش من منظور نفسي (حياته – شعره)

الشاعر (محمود درويش ولد عام (١٩٤١) توفى عام (٢٠٠٨)، وما زال درويش يتجذر أكثر في الوجدان العربي بأكمله، فيكتسب يقين الخلود وهو يتراءى كالطيف الشفيف في أجواء العواصم التي طالما شهدت مواسمه وانداءه. لكن درويش يظلّ حالة شعرية متفردة تستحق التأمل مليّاً في سياقاتها الإبداعية والنصية، كانت حياته مأزقاً وجوديّاً محكوماً بتفاصيل حالته الشعريّة، عاش موزعاً بين الأزمنة والأمكنة والقصائد)[٦] وتبدو الظروف التي فرضت على الشاعر جعلته ملتصقاً نفسياً بمكان قد أحتل، واغتصب مما انعكس على شخصيّته الشعريّة؛ فاستعان بقدرته الابداعيّة لتكون اداة عما يجول في نفسه المرهفه، ولعلَّ البحث النفسي في النصوص الشعريّة عموما،

والنص الدرويشي خصوصا قد يبيّن بعض الملامح النفسيّة الانسانية الجزئية لا الكلية؛ لأنَّ "المحلّل النفسي هو نفسه لا يملك حقيقةَ كلِّ ما يجري، لكن الشرطَ الجوهريَّ في عمله هو هذه الذاتية الشاملة التي يمكنه بلوغها كلما أحسن لا وعيُه الإنصات إلى ذلك اللاوعي الآخر، فهو لن يكون محللا نصيا إلا إذا عرف كيف يكتب هو نفسه ما يشعر به بطريقة تؤدي إلى تحفيز وانخراط تلك الروح السِّريِّة عند القارئ؛ ومن أجل ذلك، فإنه من المفروض فيه أن ينخرطَ، أثناء القراءة، انخراطا كليا، أي بكلِّ ذاتيته، بكلِّ قدراته، بكلِّ طاقاته، بكلِّ لا وعيه، بغرض أن يُحسنَ الإنصات إلى النص الأدبي، إلى ما فيه من الشيء الذي لايقال le non–dit، ومن هذا الشيء الذي لا يقبل الوصف l'indicible."[٧] و " إنَّ التحليلَ النفسيَّ فنٌّ يَستندُ إلى نظريةٍ، ويستندُ إلى ممارسةٍ، بلا تقنياتٍ إلزاميةٍ، وبلا شفراتٍ شفافةٍ، وبلا نماذجَ أصلية، وبلا تصوراتٍ أحادية، وبلا نقط استدلالٍ ثابتة. فهو، مثل بينيلوب Penelope، يَنسجُ لوحتَه ويفككها، كما نَصنعُ نحن بحياتنا "[٨] وقيمة النصوص الشعرية عند درويش قد تتدرج على المعاني ذاتها؛ فهو شاعر باحثٌ عن رؤيا وفلسفة (انسانيّة) يحسها كلّ من قرأ نصوصه الشعريّة التي تتطاير همومه، وازماته في طياتها، وهي مادة غنية قد تكشف الصراعات، والاضطرابات النفسيّة، فالنص الشعري الدرويشي قد تميّز بانجذاب القارئ نفسياً، وفكرياً، ومعرفياً، لما يمتلكه من قيم وافكار مشتركه ما بينهما؛ لواقع متغيّر، ومتحرك سمته عدم الثبات "واذا كان شعر درويش سيظل كنزاً للقراءات المتتالية، يرى فيه كل جيل من الشعراء والقراء ومضات بارقة تشير للمستقبل، فإنه سيظل شاهداً على توهج الشعرية كلما تخففت من الأيدولوجيا وأخلصت التصويب نحو أرقى أفق ترتفع إليه الإنسانية لتصبح رمزاً واسطورة وشهادة على قدرة الإبداع الخلاق على تشكيل وجه الحياة "[٩] فالشعر عنده ليس ترفا بل هما، حتى أصبح قضية أمة حمل همومها النفسّة والفكريّة "وذلك لأن النفس الانسانية هي بمثابة الرحم لجميع العلوم والفنون "[١٠] ومن المعلوم أن "النفس، من حيث هي انعكاس للعالم والإنسان، شئ بلغ من التعقيد مبلغاً يمكننا معه ملاحظتُهُ ودرسُهُ من جوانب كثيرة جداً. فهي تواجهنا بنفس المشكلة التي يواجهنا بها العالم "[١١] ومن هذا الجانب تتضح صعوبة أن تُفهم النفس البشريّة؛ لأنها تخبئ الكثير من العقد والازمات النفسيّة المكبوتة؛ لأن الإنسان بطبعه لا يبوح بكل اسراره فهو تحت ضغوط سلطويّة، اجتماعيّة، بيئية....الخ، وهذه الضغوطات تسبب بعض هذه المشكلات والعقد النفسيّة "وبما أن عالم الظاهرات النفسية جزء من العالم ككلّ، قد يخيّل للمرء أن من اليسير فهمَهُ لهذا السبب، لكننا قد ننسى أن النفس ظاهرة أعطيت لنا مباشرة، وأنها ـ تبعاً لذلك – الشروط اللازم لكل خبرة "[١٢] و قراءة بعض النصوص الشعريّة الدرويشية تتميز بميزات شاعر قد اخترق المكان والزمان بعينه برسم صور تتناغم مع التقلبات الحياتيّة و"ما يُحسْب لدرويش، ويميّزه عن غيره من الشعراء، هو قدرته الكبيرة على تسخير قصيدته الشعرية بأبعادها الجمالية والفنية، كذا قدرته على تطويع لغتها وإعادة تشكيلها بنية وسياقا، لتصبح نصا كونيا لا مجرد قصيدة وطنية أو مناسباتية،

فأبعادها الجمالية والفنية والدلالية، تجعل منها نصاً وجودياً متجدداً في كل وقت وفي كل زمان، حيث نشعر أن للقصيدة عالمها الخاص"[١٣] فدرويش يظلّ نصه الشعري مادة مفتوحة عبر الأزمنة؛ لما يمتلك من مقومات ابداعيّة وروح شعريّة مرهفة جعلته يتصدر المشهد الشعري، فنصه الشعري يجب أن ينظر اليه بوعي وأدراك تام بتسليط الضوء عما هو مسكوت، ومكبوت لديه، والبحث في هذه النصوص قد يسلط الضوء عن (المعاناة الانسانيّة والنفسيّة) لشعب كامل وامة قد أراد الآخر ان يغيبها قسرا لأنّ "المأساة ليست عربية، ولا هي مسألة هوية، إنها مسألة ضمير إنساني، فَقَدَ كُلّ شروط إنسانيته، ليجعل من الدَّم والإبادة، لُغَتَهُ التي بها يُؤسِّس لِوُجُودٍ، هو الوُجُود كما يراه هو، لا كما هو مَوجود. أي وُجُود بالدِّم، لا وُجُوداً بغيره "[١٤] والملمح النفسي الشعري الذي اتخذه درويش اعطى نصوصه سمة (انسانيّة) بامتياز بـ" توسيع حدود القضية، وفي هذا البُعد الإنساني، الذي به، غَيَّر محمود درويش اتِّجاه القضية، ما جعلَ الشِّعْرِيَّ، في تجربته هذه، يَصير غير ما كان عليه من قبل"[١٥] فأشعاره بمثابة ارتدادات نفسيّة، وهزات قد تحرك ضمير الإنسانيّة و"أنَّ أجمل القراءات هي التي تولِّد فيك الشعور أنّك تائه في غابة. أنَّك تترصّد تيه المعنى، خصوصاً أنَّ للكلمات، هي أيضاً، حناجر وأصواتاً: أصغوا، أنتم من تعشقون القراءة "[١٦]. إنّ البحث النفسي في النص الشعري عموما، والنص الدرويشي خصوصا، قد يكشف بعض ملامح القلق النفسي عن ما هو مخبوء في طيات النفس الانسانيّة.

لغة المكان – البعد النفسي

اللغة المصدر الاساس للتفاهم الانساني، وأيضا تمثل انعكاسات للنفس الانسانيّة عما تكمنه من (افكار، ومعرفة، وقيم، ومشكلات، وازمات ..الخ في (الوعي، واللاوعي) "فاللُّغة هي التي تشكَل القالب الذي تتلقَّى به كلُّ صورةٍ فكريَّة تعبيرَها الممكنَ. فلا يمكن للصُّورة الفكريَّة أن تنفصل عن اللُّغة أو تتعالى عليها، بل هي لا تتحقَّق إلّا من خلال الشَكل اللُّغويَّ الذي يجسِّدُها في بنىً وفئاتٍ صرفيَّة وصوتيَّة ودلاليَّة ذات نسق معيَّن "[١٧] ولاشك فيه (ان اللغة المكتوبة، أو صورة الكلام، كانت – ولا تزال، وستبقى – ذات أهمية لا يمكن تقديرها في نقل المعاني من مكان إلى مكان .. ومن زمان إلى زمان، وأن مكانة اللغة المكتوبة ستبقى قائمة، لحاجة الإنسان إليها)[١٨] ويجب التميز هنا إلى "إن لغة الكتابة الإبداعيَّة ليست مجرَّد أداة للتعبيرعن واقع أو معرفة فحسب، بل هي أداة لاكتشاف واقع هذه المعرفة وتلك الحقيقة. وَلَعَلَّ بالإمكان الحديث، ههنا، عن وجهين لوجود اللغة، أحدهما الوجود المجرد لها، وثانيهما المعنى المتحقق من هذا الوجود، أو ما يمكن الاصطلاح عليه في مجال الفعل الإبداعي على أنهما التَّشَكُّل الظاهر للفعل الإبداعي والمعرفة المتأتية من تأويل هذا التَّشكُّل "[١٩] وتسليط الضوء على اللغة قد تكشف الافراح، والاحزان، والازمات، والصراعات النفسيّة التي تخترق الوجود الانساني؛ لما لهذه اللغة من قوة استيعابيّة يستطيع الانسان ان يفرّغ

همومه عن طريقها، وهي تشمل مختلف التعبير الإنساني من معارف وعلوم مختلفة. فأداة المبدع وسلاحه هو اختيار اللغة المؤثر في المتلقي، ولا بد من الاشارة إلى أن اللغة وعلاقتها بالفكر الإنساني هي (وسيلة التعبير الافكار والمشاعر، وهي أفضل وسيلة اتصال اخترعها الانسان لتسهيل عملية التفاعل، وعلماء النفس الاجتماعي اليوم يعتقدون ان اللغة لم تعد وسيلة لنقل الافكار والمعتقدات انها جزء من عملية التفكير ذاتها)[٢٠] وان " اللغة اكثر من وسيلة للنقل او للتفاهم انها وسيلة استبطان واكتشاف. ومن غاياتها الاولى ان تشير وتحرّك، وتهز الاعماق وتفتح ابواب الاستباق. انها تُهامسِنا لكي نصير، أكثر مما تهامسنا لكي نتلقَّن. انها تيار تحولات يغمرنا بإيحائه وايقاعه وبُعده. هذه اللغةُ فعلٌ، نواةُ حركة، خزّانُ طاقات. والكلمة فيها أكثر من حروفها وموسيقاها. لها وراء حروفها ومقاطعها دم خاص ودورة حياتية خاصة. فهي كيان يكمن جوهره في دمه لا في جلده. وطبيعي أن تكون اللغة هنا ايحاء لا ايضاحاً. "[٢١] وبهذا الايحاء اللغوي الممزوج نفسيا قد يصعب اعطاء تعميما كليا لأي ظاهرة نفسيّة في أي نص شعري وابداعي؛ لأن" ظواهرية النفس غنية بالألوان، شديدة التنوع شكلاً ومضموناً، الى حدٍّ يستحيل معه عكس كلّ غناها في مرآةٍ واحدة. كما لن نتمكن أبداً في وصفنا لها من اشتمال الكلّ، ولكن لنكن راضين بإلقاء ضوء على أجزاءٍ صغيرة من الظاهرة الكليّة "[٢٢]، ويمكن الاستفادة من لغة المكان في النص الدرويشي لتبيّن عمق الازمة المكانية عما تعانيه الذات الشاعرة نفسيا.

لغة الذات نفسياً

يقول محمود درويش في قصيدته منفى (٣) كوشم يد في معلقة الشاعر الجاهليّ:

أَنا هُوَ، يمشي أَمامي وأَتبعُهُ
لا أَقول له: ههنا، ههنا
كان شيء بسيط لنا:
حَجَرٌ أَخضَرٌ. شَجَرٌ. شارعٌ.
قَمَرٌ يافعٌ. واقعٌ لم يعد واقعاً .
هو يمشي أمامي
وأَمشي على ظلِّه تابعاً ...
كُلَّما أسرعَ ارتفَعَ الظلُّ فوق التلال
وغطَّى صَنْوبرةً في الجنوب
وصِفصافةً في الشمال،
ألم نفترق؟ قلتُ، قال: بلى.
لَكَ مني رجوعُ الخيال إلى الواقعيّ
ولي منك تُفَّاحة الجاذبيَّةِ
قلت: إلى أَين تأخذني؟
قال : صوب البداية، حيث وُلِدْتَ
هنا، أنت وآسمك /

لو كان لي أَن أُعيد البداية لاخترتُ
لاسمي حروفاً أقَلَّ
حروفاً أخفَّ على أذُن الأَجنبيّة /[٢٣]

لغة النص الشعري تبيّن (**انشطار الذات**) ما بين ضمير متكلم (انا)، وضمير غائب (هو) الذي يقوده إلى شيء معروف بينهما باستمرار الفعل (يمشي) دون تردد، ولا سؤال بإشارة (مكانية)، (ههنا . ههنا) استرجاع للذات نفسيا فكلّ شيء كان بسيطاً كبساطة الفطرة الإنسانيّة آنذاك، وهناك اشياء مشتركة ما بين (انا – الواقع)، (هو– الامل) باسترجاع لكل ما هو مخبوء في الذاكرة النفسّة للذات، فهو يذهب ويجيء بمدلولات مكانيّة (حجر اخضرٌ، شجرٌ، شارعٌ، قمرٌ، ....) اثار، وملامح مكانيّة طبعت في الذهن الانساني منذ الصغر وبالأخص (المكان)، فالذات تنشطر عبر المكان نفسيا، ولغة قد تبيّن الاضطراب النفسي المكاني، فدرويش عمد على هذا الانشطار الذاتي النفسي ليتوسع بالمفهوم الدلالي المكاني. إنَّ لغة النص تبيّن صورة الذات وتأثيرها النفسي بانشطارها المستمر بالسير والمشي خلفه (هو) انغماس الذات باتباع الظلّ فهو مدرك كل خطواته حتى بدأ بحركةٍ مسرعةٍ مع ارتفاع الظلّ (فوق التلال) فهي حركة من الاسفل الماضي إلى الاعلى، (الماضي) زمن بدأ يتقدم بتقدم الذكريات، وطابع الحزن، والالم....الخ، حتى تحاورا بلغة استفهاميّة (ألم نفترق؟) فأجاب (بلى)، الحوار قد عمق الصورة الشعريّة باحتدام صراع الذات المنشطرة؛ لتصل الى عقدة نفسيّة مكانيّة بـ (رجوع الخيال إلى الواقعي) فاذا كان خيالاً كيف يكون واقعياً؟ فدرويش التصاقه بمكان قد حلم ان يعيش فيه (الحياة الطبيعية)؛ لأنه قانون طبيعي بشري (تُفَّاحة الجاذبيَّة) ترسيخ هذا المفهوم الوجودي للانتماء (للأرض)، والحوار يبيّن الطابع النفسي الذاتي بأسئلة مكانيّة (اين تأخذني)؟ (قال: صوب البداية، حيث ولُدِتَ) يأخذه إلى البداية، إلى الولادة، إلى المكان الذي عاش وترعرع به (هنا) أنت واسمك وكأن المخاطب سُلب منه اسمه، ولم يعد مرتبطاً بمكان؟ فلا (الاسم) ولا (المكان) يعودان علية كل شيء مسلوب حتى تمنى لو كان له البداية لاختار اسماً يتناغم مع الاذن الاجنبية؟ أي ضياع وأزمة يشعر به الانسان عندما يغيّب ذاتيا ويعيش بمكان لا جذور ولا انتماء له سوى جسده، فلا اسم ولا وجود للذات دون المكان. أزمة المكان واثرها على الذات نفسياً بانَ واضحاً من انشطار الذات، واسترجاعها، وحوارها، فلغة درويش أعطت النص بصمة شعرية متفردة بلحاظ الطابع النفسي المكاني على الذات. وتجدر الاشارة إلى إنّ (التحليل النفسي ليس علماً فحسب، بل أنه أفضل من العلم، لأنه فنٌ يساعدنا على تفكيك حقيقةٍ ما في كلِّ قطاعٍ من القطاعات الملغزة داخل التجربة الانسانية، كما يعيش الانسان هذه التجربة، لأنهُ فنٌ لا يميز ذات المعرفة عن موضوعها، فهو لذلك ينفي وجودَ ذاتٍ محدَّدةٍ أو ممكنة التحديد، وينفي وجود موضوعاتٍ فكرية ليست بعدُ مسكونةٌ وملفوفةً بواسطة ميل ومبادراتٍ ورغباتٍ هي جزء

من الذات)[٢٤]، ويمكن القول ان درويش قد اثرى نصه الشعريّة بمادة ثقافيّة تحمل من المضامين الفكريّة، والتجارب الانسانيّة الشيء الكثير. تستمر لغة الذات بتقلباتها النفسيّة في قصيدة(منفى):

أَنا وأَنا لا نصدِّق هذا الطريق الترابيَّ،
لكننا سائران على أَثَر النمل [إنَّ
القيافة خارطةُ الحَدْس] لا الشمس
غابت تماماً، ولا القمر البرتقاليُّ ضاءَ
أَنا وأَنا لا نصدَّق أَنَّ البداية
تنتظر العائدين إليها، كأمّ على
دَرَج البيت. لكننا سائران ولو
خذلتنا السماء
أَنا وأَنا لا نصدِّق أن الحكاية
عادت بنا شاهدين على ما فعلنا:
نسيتُكَ مثل قميصي المُبقّع بالتوت
حين ركضت إلى غابة وندمت..
وأَمَّا أنا فنسيتك حين احتفظت
بريشةِ عنقاءَ لي ... وندمت[٢٥]

من انشطار الذات في مطلع النص بضميرين متكلم، وغائب (انا)، (هو) إلى (**انعكاس الذات**) بضميرين للمتكلم (أنا)، (أنا) صورة الواقع، بتحول لغوي يدل على انعكاس الذات نفسيا في النص الشعري، فالأزمة المكانيّة طاغيّة ومسيطره على النص بعدم التصديق فكل شيء مغيب بهذا الطريق الترابي الذي يخلو من الملمح العمراني فلا حياة، ولا شجر، ولا ...الخ. مكان هو لا مكان؟ مشاهد، وصور وتغييب لكلّ ذاكرة وجدانيّة انسانيّة في هذا المكان المفجوع، ولكن السير مستمر بفعل (أثر النمل)؛ فلا شيء يدب في هذا المكان الذي يدل على وجود الحياة الا أثر النمل؟ الذي تغذى على اجساد تحت التراب المملوءة بأجساد قد قُتلت، وسلبت ودفنت!! بفعل فاعل لا يفقه شيء الا لغة القتل، والتشرد، والتخريب، الذات تسير على الاثر (خارطة الحدس)، والشمس لم تغيب ولا (القمر البرتقاليّ ضاءَ) صور تتلاحم بها المشاهد النفسيّة، وكذلك حركة ابداعيّة شعريّة تحرك الوجدان والضمير الانساني " فان فائدة القراءة النفسانية أنها لا تكتفي بفكِّ الشفرة، بل تبدأ بذلك من أجل أن تُعدِّد وتَحلَّ الخيوطَ التي تُؤلِّف لُعبة التحويلات "[٢٦] و(المتلقي يلحظ جروح النص الدرويشي واسئلته المصيريّة ومتعة الحوار مع الذات والآخرين، وليت هناك من يترجم هذه القصائد إلى لغات العالم)[٢٧]. اللغة تتكرر على النص (أنا وأنا لا نصدق أن البداية) بتوكيد لفظي لتوكيد العودة إلى (البداية)، فالبداية لم تبدأ الا من حيث العودة إلى الاصل، مفهوم (المكان)عند درويش أخذ يسلك منحى اخر بتشبيهات وصور انعكاسيّة نفسيّة للذات بين (الام) . (المكان)؛ لتوطيد العلاقة الوثيقة بين (المكان – الذات)، واستدراك لغوي (لكننا سائران ولو خذلتنا السماء) اعطت

النص الاستمرار بالسير والتقدم، ومن ثم تكرار التوكيد اللفظي اللغوي للضميرين (أنا) و(أنا) اعطى انسيابيّة ارادها درويش ان تلازم النص؛ لأنّ (اللغة يجب ان تكون طيّعة بين يدي الشاعر يكيّفها كيفما يشاء، ويخضعها لأحاسيسه ومشاعره)[٢٨] فاللغة "شديدة الارتباط بموقف الشاعر من الحياة ورؤيته لها "[٢٩] . الذات وانعكاسها المستمر في النص يظهر عدم التصديق بقوله: (لا نصدق) ولكن هنا يبدأ منحى نفسي متغير هو جلد للذات عما حصل من مشكلات، واخطاء ..الخ، التي ادت لتفاقم الازمة بعودتهم وهم شاهدون على ما (فعلنا)، ويأتي التفصيل بهذا الجلد الذاتي (نسيتُكَ مثل قميصي المُبقّع بالتوت) اشارة لفضل هذه (الأرض) التي اشبعت هذا الانسان من عطرها، وخيراتها، وجمالها، وعاشوا وتربوا فيها، ثم تركوها وساروا إلى مجهول (حين ركضت إلى غابات وندمت) أي مكان من دون الأصل هو غابة تنهش بالذات والروح فلا وجود دون الانتماء (للأرض – الوطن)، انعكاس الذات طاغ في النص الشعري وبتفصيل أيضا (أمًّا) (انا) فنسيتك باحتفاظي بريشة عنقاء (العنقاء طائر خيالي ورد ذكره في قصص مغامرات السندباد وقصص ألف ليلة وليلة، وكذلك في الاساطير العربية، ويمتاز هذا الطائر بالجمال والقوة، وفي معظم القصص عندما يموت يحترق رماداً ويخرج من الرماد طائر عنقاء جديد)[٣٠] يستدعي درويش هذه الأسطورة لبيان عمق الازمه النفسيّة التي المت به من جهة، ومن جهة اخرى التوسع بهذا المفهوم الاسطوري لترسيخ رؤيته الفلسفية الوجوديّة التي تعطي قوة واراده للإنسان ان يتمسك بالمكان مهما كانت الصعاب والازمات (فالشاعر باعتباره ذات مبدعة، لا يمتثل لشروط المكان، ولا لمنطق السيرة كمرادف للمألوف اليومي، إنه يتنقل داخل فوضى أبجدية الحرف التي فيما هي تتلاحم، تعلن عن ولادة عالم منفلت، هذا العالم المنفلت، هو عالم اللغة نفسها وكونها الفريد، وهو ما ينتمي الية الشاعر باعتباره صوتاً وضميراً للوجود الإنساني في العالم)[٣١] و جدير بالذكر إلى "أن اللقاء مع الذات هو أولاً لقاء الإنسان مع ظلّه، أما الظل فهو رسالة صارمة وباب ضيّق لا يوفّر بناؤه المؤلم أي شخص ينزل إلى البئر العميق. لكن على المرء أن يتعلم معرفة نفسه كي يعرف من هو "[٣٢]، ولعلّ معرفة بعض الملامح النفسيّة قد يستطيع من خلالها المتلقي أن يفهم الشي القليل عما يمّر به الانسان من صراعات وأزمات من جراء سلب (المكان). ينهي درويش نصه (منفى٣):

قلت : أَلا نتصالَحُ ؟
قال : إذا وقَّعَ الحيُّ والميت، في
جسد واحد، هدنةً
قلت : هذا أنا الميت والحيّ
قال : نسيتك، من أنت؟
قلت: أنا نسخة عن "أنا" ك التي انتبهت لكلام
الفراشة لي: يا أَخي في الهشاشة ...
قال : ولكنها احترقت

قلت : لا تحترق مثلها
والتفتُ إليه، فلم أَره، فصرخت
بكُلِّ قوايَ: آنتظرني! وخذ كل شيء
سوى الاسم /
لم ينتظرني، وطار .. وأَدركني الليل
فاستدرجت صرختي شبحاً عابراً
قلت: من أنت؟
قال: السلام عليك، فقلت: عليك السلام
فمن أنت؟
قال: أنا سائح أَجنبي أُحب أساطيركم
وأحب الزواج بأرملة من بنات عناة![٣٣]

من (انشطار) الذات و(انعكاسها)، تستمر الازمة النفسيّة المكانيّة إلى عملية كشف بشكل أوسع، ويتضح هذا المعنى بـ **(حوار الذات)**، فيبدأ الحوار بـ (قلت) ومن ثم استفهام للصلح أي صلح؟ فيبدو الخصام والاغتراب الروحي والنفسي طاغياً على هذا الحوار الفكري الفلسفي (أنا الميت والحيّ) فتقدم الموت على الحياة أشاره نفسيّة لهذه الذات الهائمة المتصارعة، فكيف تستنهضُ الموتى؟ بل هناك أموات احياء! أموات دون مكان، أحياء في مكان لا يستطيعون الانتماء إليه يكونون (أمواتا – احياء) عندما يعيشون في هذا الصراع الوجودي، لكن الأحياء الموتى هنا جماد متحرك أُفرغت أفئدتهم فكانت كهشيم تذروه الرياح، هم كذلك لأنهم قُطعوا من الجذور التي تربطهم بهذا المكان، المكان الذي كلما دنوا منه احتضنوه بشوقٍ ودفءٍ عارفين بمكانته الوجوديّة النفسيّة في ذواتهم، ومهما طال النأي عنه عفا لهم وان لا يمكن أن يفترقا حتى الرمق الاخير. فالأزمة تتجه إلى أبعاد ودوافع نفسيّة مختلفة و"تعتبر الدوافع بمثابة القوة الدافعة أو الطاقة المحركة للكائن الحي. والواقع إن الدوافع النفسية من الموضوعات التي تشغل اذهاننا جميعاً في حياتنا اليومية "[٣٤]. المكان تماهى مع الذات في النص، حتى تكرر المقطع اللغوي في النص مما أثرى المعنى العام امام المتلقي بـ (قلت: أنا نسخة ع "أنا" ك التي انتبهت لكلام الفراشة لي) حوار الذات هنا والرجوع إلى حلم الطفولة، وبعض احلامها، وخواطرها، ومشاعرها بنداء (يا أَخي) كل ما تحمل من ذكريات واعية ولا واعية في المخزون الذهني النفسي لاستثارت الذات واسترجاعها إلى كل ما تنتمي لها نفسيا، (لكنها احترقت) ويوصيه أن (لا تحترق مثلها) فكل ما دار من حوار بين ذاتين توضح بعض الصراعات والازمات النفسيّة للذات الانسانيّة، وهنا يشتد صراع الذات في نهاية النص الشعري:

والتفتُّ إليه، فلم أَره، فصرخت
بُكلِّ قوايَ: آنتظرني! وخذ كل شيء
سوى الاسم /
لم ينتظرني، وطار .. وأَدركني الليل

فاستدرجت صرختي شبحاً عابراً
قلت : من أنت؟
قال: السلام عليك، فقلت: عليك السلام
فمن أنت؟
قال : أنا سائح أَجنبي أُحب أساطيركم
وأحب الزواج بأرملةٍ من بنات عناة!

وعي الذات واسترجاعها وانتباهها إلى ما حولها من متغيرات بـ (التفتُ إليه) وكل هذا الحوار الذي كان جارياً وهو بمثابة (امل، خيال، امنية، ....الخ) ممزوج امتزاجا واضحا بين (الوعي واللاوعي) هذا الامتزاج كوّن (عقدة نفسيّة) لهذه الذات المتحاورة، فالصراخ والتحول الدلالي النفسي يوضح عمق التيه التي تشعر بها الذات التي تأن وتصرخ بكل قواها وتمسكها (بالاسم) الذي يعني الانتماء والهوية، فصراع الذات بان واضحا في النص (لم ينتظرني، وطار) حتى أدركه الليل دون جواب، واسترجاع الوعي الكامل بعد هذا الحوار المطول حتى يستدرج الصرخة (شبحاً عابراً) ويسأله من أنت؟ فتتحرك الذات حركة متقدمة للأمام بنسق واحد، وبوتيرة متصاعدة للوصول إلى النقطة الاساس التي كوّنت هذه الازمة المكانيّة التي اخترقت النفس. لقد "منح درويش شعرَه سرَّ القدرة على التأثير في المتلقي؛ لما تضمَّنه من ثقافة مرجعيَّة وأيديولوجية فكرية تمكَّن خلالهما من الاطلاع على ثقافات، وتجارب إنسانية "[٣٥] بفلسفة فكريّة درويشه (اعطت اللغة الشعرية طاقات ايحائية وهو مصدر من المصادر الدالة على تفجر المواقف الانفعالية للشاعر)[٣٦]. يسأل درويش ويبحث عن جواب قد أرّقه كثيرا يسأل من أنت؟ بعد هذا الحوار الطويل، فيرد السلام، ويكرر السؤال ثانية من أنت؟ فيجيب (أنا سائح أجنبي أحب أساطيركم)، (وأحب الزواج بأرملة من بنات عناة!) يحيل الشاعر النص إلى (اسطورة عناة من الآلة الكنعانية، يميز تمثيلاتها الاسد والبردى واللوتس وطوق الشعر والتاج المقرن والأفعى، ترافق بعل في سيرتهِ الميثولوجية، ويعتقد أنها تمثل أخته وعشيقته، كما يعتقد أنها تمثل ربه للصيد والحرب)[٣٧]، فدرويش يستدعي الاسطورة في نصه الشعري؛ لتكثيف المعنى، واعطاء ثراء فكري ثقافي بصور ابداعيّة جماليّة وروح مرهفة تلامس الوجدان الانساني و"يتفق علماء النفس على اختلاف مدارسهم على أن التجارب الانفعالية الوجودية تترك طابعها على الفرد كما تترك آثارها على بنيته النفسية. وأن هذه الآثار الانفعالية المتأصلة تتدخل في عملية ادراكه للعالم كما تتدخل في تحديد سلوكه "[٣٨]. ويمكن أن نرسم ملامح لغة الذات نفسياً وعلاقته بالمكان بهذا المخطط الايضاحي .

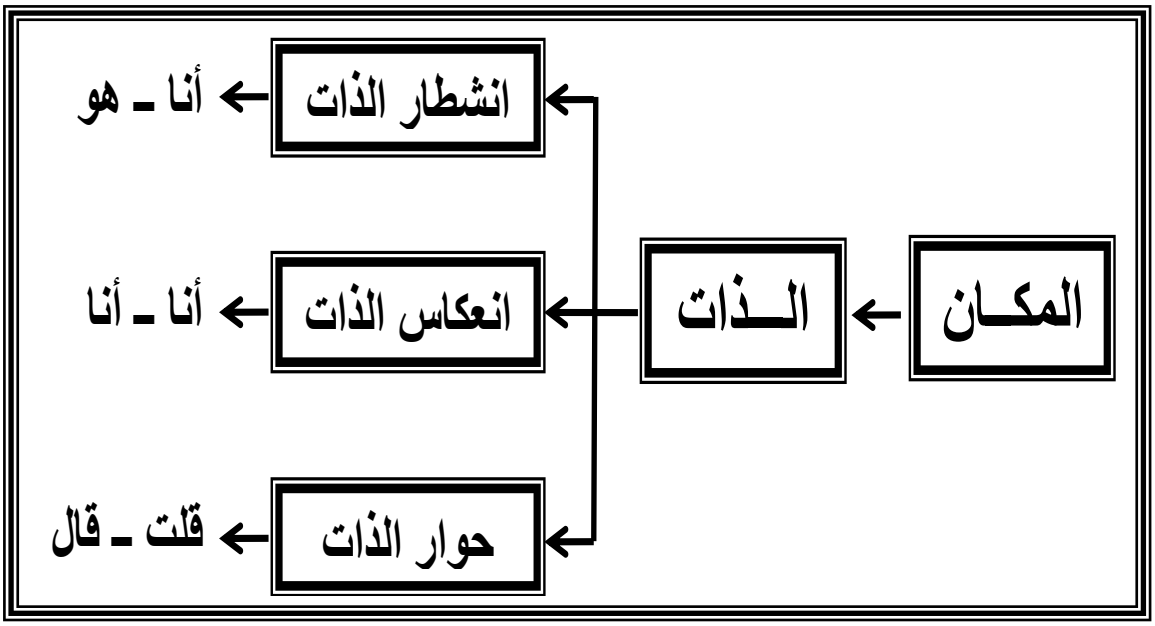

قلق المكان واثره النفسي

القلق كمفهوم عام متعارف، ومتداول عند الانسان، لكن تأثيره بالنص الشعري له مفهومه الخاص، وبالخصوص عند شاعرٍ كدرويش فأنه تعامل مع هذا المفهوم بتقنية قد ميزته عن غيره عندما ربط المكان نفسياً؛ فأنتج نصوصاً فلسفيّة فكريّة تجعل المتلقي يتحسس هذا التأثير النفسي على النص الشعري؛ لأنه ابن هذا المفهوم أن صح القول فـ "القلق هو، أولاً، شيء نشعر به "[٣٩] وبالمفهوم النفسي له عدة أسباب، ومفاهيم متعددة لدى المختصين بعلم النفس؛ لأنّ (القلق واسع الانتشار. ومع أن الأحداث والظروف والعلاقات التي تسبب القلق تختلف بين شخص وآخر، غير أننا غالباً ما نشعر بالقلق بدءاً من شؤون الحياة اليومية وصولاً إلى اتخاذ القرار)[٤٠] و (القلق Anxiety حالة من الخوف الغامض الشديد الذي يمتلك الانسان، ويسبب له كثيراً من الضيق والالم، والقلق يعني الانزعاج، والشخص القلق، يبدو متوتراً مضطرباً)[٤١] والشخصيّة القلقة تكون على حالة غير متزنة مما يسبب انفعالات نفسيّة تنعكس على مجمل حياته اليوميّة، والبحث النفسي والغوص لمفهوم القلق يتيح للباحث الانصات لقيمة للعمل الابداعي عموما، والنص الشعري على وجه الأخص عما تحتويه هذه النصوص من افكار، وأزمات، واضطراب، وغموض ... الخ قد تبوح بما تخبّأ النفس الانسانيّة.

قلـــق الحيـــاة

قال درويش في قصيدته (كما لو فرحت) :

كما لو فَرِحْتُ: رجعت. ضغطتُ على
جرس الباب أكثرَ من مرّةٍ، وانتظرتُ ...
لعلّي تأخرتُ. لا أَحدٌ يفتح الباب، لا

نأمةٌ في الممرِّ.
تذكرتُ أن مفاتيح بيتي معي، فأعتذرتُ
لنفسي: نسيتُك فادخلْ
دخلنا... أنا الضيف في منزلي والمضيف.
نظرتُ إلى كل مُحْتَويات الفراغ، فلم أَرَ
لي أَثَراً، ربما... ربما لم أَكن ههنا. لم
أجد شَبَهاً في المرايا. ففكَّرْتُ: أَين
أنا، وصرخت لأوقظ نفسي من الهذيان،
فلم أَستطع... وانكسرتُ كصوتٍ تَدَحرَجَ
فوق البلاط. وقلت: لماذا رجعت إذاً؟
واعتذرت لنفسي: نسيتُك فاخرجْ!
فلم أَستطع. ومشيت إلى غرفة النوم،
فاندفع الحلم نحوي وعانقني سائلاً:
هل تغيَّرتَ؟ قلت تغيرتُ، فالموتُ
في البيت أفضلُ من دَهْسٍ بسيَّارةٍ
في الطريق إلى ساحة خالية![٤٢]

تمني الفرح والرجوع بإشارة مكانيّة (أين) تظهر الصور الأولى للقلق الحياتي في النص بمظهر يدل على (**التوتر النفسي**) بفعل الرجوع (رجعتُ، ضغطتُ، جرس الباب، أكثر من مرة) والوقوف في مكان يعرفه، أذن ما الانتظار هذا؟ الانتظار طال، وطال، والوقت كأنه معلوم لهذ الموعد حتى يسأل نفسه (لعلي تأخرتُ)، (لا أحد يفتح الباب) و(لا نائمة في الممرِّ) عبارات تدل على اتساع التوتر النفسي الذي سيطر على ذهن الطارق بسؤالٍ وجوابٍ يدلان على عدم الوضوح، فتظهر الصور الثانيّة النفسيّة للقلق الحياتي هي (**اللذة والألم**) بفعل ثان هو التذكر بما يحمله من مخزون فكري انساني بقوله: (تذكرتُ أن مفاتيح بيتي معي) واللذة والألم "هي أكثر أساسية وأكثر أولية من الإدراكات الحسية الخارجية، كما أنها تستطيع أن تنشأ حتى في الحالات التي يكون فيها الشعور غامضاً"[٤٣] وتتضح الصورة النفسيّة أكبر وأعمق فيعتذر لنفسه لنسيانه؟ فيدخل إلى (المكان – الوطن . البيت) مفاهيم مكانيّة واسعة بفلسفة درويشية فيقول: (دخلنا... أنا الضيف في منزلي والمضيف) يكبر حجم الألم؛ لينتج عنه صيحات واهات والا كيف يكون هو الضيف في منزله والمضيف؟ وكلّ شيء ساكن اصابه الفراغ فلا يرى له أثرا يدل على امتداده، وجذوره الطبيعية، ومن ثم تظهر الصورة الثالثة (**الاضطراب النفسي**) تباعا للعاملين السابقين للقلق الحياتي بقوله: (ربما لم أكن ههنا. لم أَجد شَبَهاً في المرايا. ففكَّرْتُ: أين أنا) إشارات مكانيّة تبين القلق والصراع المضطرب بين الوعي واللاوعي الفكري الانساني فـ "لا يصنع الوعي واللاوعي كلاً متكاملاً عندما يُقمع أحدهما أو يتأذى من الآخر. وإن كان لابدّ أن يتنافسا. فلتكن على الأقل معركة عادلة يحظى فيها الطرفان بحقوق متساوية لأن كلاً منهما وجه من وجوه الحياة. وعلى الوعي أن يدافع عن

مبرراته ويحمي نفسه، ولا بدّ ان تعطى حياة اللاوعي الفوضوية الفرصة لتتخذ طريقها أيضاً – بقدر ما نستطيع أن نصمد"[٤٤]. ويشتد الاضطراب النفسي بين (الوعي واللاوعي) عندما يقول (صرختُ) لإيقاظ النفس من هذا المأزق النفسي، الصراخ قد يبين عمق الضياع الذي انتاب النفس الشاعرة من هذه التقلبات المكانيّة الحياتيّة فـ (النصوص الحية هي تنفتح على الحياة وجدليتها)[٤٥]، و لكن من الصعب في مكان أن تكشف النفس كلّ ما هو مخبوء في دواخلها. تظلّ الصور الشعريّة النفسيّة تتوالى في النص بقوله: (فلم أستطيع... وانكسرت كصوتٍ تَدَحرجَ)، (فوق البلاط. وقلت: لماذا رجعت إذاً) والأفعال (أَستطع، انكسرتُ، تدحرج، قلتُ، رجعت؟) تدلّ على استمرار الازمة المكانيّة الممزوجة بـ (اللذة والالم) و"الاحساسات المؤلمة تنزع نحو التغير ونحو التفريغ، وهذا هو السبب الذي من أجله نفسر "الألم" على أنه يتضمن ازدياد شحنة الطاقة النفسية، ونفسر "اللذّة" على أنها تتضمن خفظها"[٤٦]، وتأكيدا لهذه الصور الشعرية النفسيّة الممزوجة (باللذة والالم) يستفهم لهذا الرجوع؛ لتظهر الصورة النفسيّة اعمق وأوسع عندما يقدم الاعتذار للنفس، ومن ثم اسلوب تعجب (نسيتُكَ فاخرجْ!) فلا يستطيع لهذا الخروج حتى تكبر الهو بينهما (فلم أَستطع) حتى مشى وتجول إلى (مكانه، سكنه، وطنه، بيته، ارضه... الخ) (غرفة النوم) دلالة مكانيّة نفسيّة حتى عانقه الحلم ويتساءل: (هل تغيِّرت؟) فيجب نعم (تغيرتُ) هذا الحوار النفسي يزيد وتيرة القلق على النص بحركةٍ ثابتة نطق بها النص الشعري: (فالموت) في ا(لبيت– الأرض) الأصل أفضل من دهس سيّارة في (الطريق إلى ساحة خالية!) فلا مكان الا مكان الانتماء، وكلّ الأماكن دونه ساحات خالية من الروح. والصورة الشعريّة النفسيّة تبيّن ما أراده الشاعر درويش برؤيا فلسفيه تظلّ مواكبة للواقع الحياتي. فالأزمات النفسيّة المكانيّة رسمت عمق الانفعالات، والألم وعدم الاستقرار النفسي لذات الشاعر و "هذه الانفعالات اللّذة والألم اللتان تترجمان هموم الشعراء ومعاناتهم ترجمه واقعية تحفل بها التجربة الشعرية؛ لان الحياة الانسانية مليئة بالصراعات والمتناقضات التي تؤثر تأثيراً مباشراً في النفس البشرية مما يجعلها عرضة لصراع نفسي يجمع بين النقطتين في ان واحد"[٤٧]، ويظلّ "محمود درويش لصيقاً – رغم أنفه وبإرادته معاً – بموضوع أساسي هو قضية وجوده وهويته ومأساة شعبه مهما كانت التجارب الأخرى الوجدانية أو الفكرية التي تتراءى عبر سطوره وقصائده"[٤٨] . الصور الشعريّة في النص الدرويشي من (التوتر النفسي، ولذه وألم، والاضطراب النفسي تبيّن صورة (القلق الحياتي) جراء الأزمة المكانيّة النفسيّة، وهي بمثابة رؤيا فلسفيّة عمد درويش على ترسيخها.

قلــق المــوت

يقول درويش في قصيدته (لا أَعرف الشخص الغريب) :

لا أَعرف الشخصَ الغريبَ ولا مآثرهُ ...
رأيتُ جنازةً فمشيت خلف النعش،

مثل الآخرين مطأطئ الرأس احترامً. لم
أَجد سَبَباً لأسأل: مَنْ هُو الشخصُ الغريبُ؟
وأين عاش، وكيف مات [فإن أسباب
الوفاة كثيرةٌ من بينها وجع الحياة].
سألتُ نفسي: هل يرانا أَم يرى
عَدَماً ويأسفُ للنهاية؟ كنت أَعلم أنه
لن يفتح النَّعْشَ المُغَطَّى بالبنفسج كي
يُودِّعَنا ويشكرنا ويهمسَ بالحقيقة
[ما الحقيقة؟]. رُبَّما هُوَ مثلنا في هذه
الساعات يطوي ظلَّهُ. لكنَّهُ هُوَ وحده
الشخصُ الذي لم يَبْكِ في هذا الصباح،[٤٩]

(الغموض) عنوان ومطلع النص هو عدم معرفة الشخص الغريب ولا مآثرَهُ، تقنيّة سرديّة أرادها الشاعر في هذا النص بحضور (الشخصيّة) بما تحمله من طاقة استيعابيّة، يبدأ حضور الشخصيّة تباعا بالمشي خلف النعش مثل الآخرين الذين يبدون له التقدير الكبير وهم (مطأطئ الرأس احتراماً) فهو يبدو ذا شأن عظيم، حتى يستفهم عن هوية الشخص الغريب؟ وعن أسباب (الوفاة). مفهوم الغموض يتسع أكثر فأكثر وعدم المعرفة فلا يجد أحد ليسأل (من هو) الشخص الغريب؟ أين عاش؟ سؤال مكاني، وهاجس نفسي عن حال شخصيّة الغريب (كيف مات)، أسباب الوفاة كثيرة، والنتيجة واحدة هو (الرحيل – الموت) الذي لا مفر منه، ولكن يعرج درويش على جانب مهم هو (وجع الحياة)، فدرويش يركّز في نصوصه على الجوانب الانسانيّة الوجوديّة التي يرسخها في ذهن المتلقي، فيبقى الحدث يشوبه الغموض فيقول: (سألتُ نفسي هل يرانا أَم يرى) ما الجدوى من هذه الرؤيا فهو مغيّب وميت؟ هنا تتكشف بعض ملامح الغموض بأسفه للنهاية وعلمه أنه لا يُفتح (النعش المغطى بالبنفسج) لكي (يُودّعَنا- يشكرنا- يهمس بالحقيقة)، (ما الحقيقة)؟ سؤال يظلّ باحثا عن جواب فـ "تعود درويش على التملص الماهر من مباشرة السياسية في قصائده، وتعود قراؤه دائماً على فهمه وتفسيره في ضوئها، فهو منقوع في مائها ومخبوز في أتونها. وبقدر ما يرفض شاعرنا أن يتكئ على نبل قضيته، فإنه يجتهد في تجديد مساراته وابتكار دروبه وأساليبه، غير أن ما أنقذ شعره من عماية الرمز الخفي والتجريد البعيد هو حفاواته بالإشارات الدالة"[٥٠]. يظهر العنصر السردي الثاني في النص (الزمن) بقوله: (رُبّما مثلنا في هذه الساعات يطوي ظلُّهُ) فالاشتراك لزمن واحد وقضية واحدة فهو لم يبكِ في هذا الصباح، فيتحول القلق من **(الغموض)** إلى قلق **(الضياع)**، والضياع يرتكز على مفهوم الهوية وهي "من المفاهيم المركزية التي تسجل حضورها الدائم في مجالات علمية متعددة ولاسيما في مجال العلوم الانسانية ذات الطابع الاجتماعي. ويعد بالتالي من أكثر المفاهيم تغلغلاً في عمق حياتنا الثقافية والاجتماعية اليومية، ومن أكثرها شيوعاً واستخداماً"[٥١] والهوية "حقيقة تولد وتنمو، وتتكون وتتغاير، وتشيخ وتعاني من

الأزمات الوجودية والاستلاب"[٥٢]. النص يرسم صوراً (لقلق الموت) للأزمة المكانيّة النفسيّة، فحركة النص القلقة تظلّ قائمة في نصه (لا أعرف الشخص الغريب) بقولة:

ولم يَرَ الموت المحلِّقِّ فوقنا كالصقر...
[فالأحياء هم أَبناءُ عَمِّ الموت، والموتى
نيام هادئون وهادئون وهادئون] ولم
أَجد سبباً لأسأل: من هو الشخص
الغريب وما اسمه؟ [لا برق
يلمع في اسمه] والسائرون وراءه
عشرون شخصاً ما عداي [أنا سواي]
وتُهتُ في قلبي على باب الكنيسة:
ربما هو كاتبٌ أو عاملٌ أو لاجىءٌ
أو سارقٌ، أو قاتلٌ .. لا فرق،
فالموتى سواسِيَةٌ أمام الموت... لا يتكلمون
وربما لا يحلمون...
وقد تكون جنازةُ الشخصِ الغريب جنازتي
لكنَّ أَمراً ما إلهياً يُؤَجِّلُها
لأسبابٍ عديدةْ
من بيناها: خطأ كبير في القصيدةْ![٥٣]

تتداخل العناصر السرديّة فيما بينها في النص الشعري، وتتأرجح ما بين مفهومين نفسيين هما (الغموض والضياع)، فروائح الموت خيّم على المشهد فهي مكملة إلى الصورة الاولى؛ ولكن هنا تظهر الازمة النفسيّة جليا، فالموت يُرى يومياً فوق الجميع (الابناء، الاباء، الامهات...الخ) لا يفرق أحد الكل سواسية فوق رؤوسهم (كالصقر) الذي يغتنص فرائسه، لغة (الآخر) وقانونه اللاإنساني أنه وحش كاسر لا يعرف الا لغة الموت، فدرويش ينتقل انتقالاً نفسياً بوتيرة قلقة عندما شبه (الأحياء هم أَبناءُ عَمِّ الموت) أي أحياء هؤلاء الذين يصفهم بالأموات؟ أي مكان يحتضن هؤلاء؟ فالحركة النفسيّة والتحول الدلالي للمفردات والمعاني أعطى النص مشاعر ومخزوناً نفسياً متأثراً بجروح مكانيّة، فيكشف درويش في شعره رؤيا وجوديّة عما تعانيّه النفس عندما يقول الموتى (ينام هادئون) بتكرار لفظي لكلمة هادئون التي تشكل نقطة جوهريّة قد تكشف بعض ما هو مسكوت في غوار النفس المأزومة، والسؤال الذي يبحث عن جواب من هو (الشخص الغريب وما أسمه) مسيطر على النص عموما، والغموض والضياع لا ينفك أن يفارق هذا السؤال لكن (لا برق يلمع في اسمه) والسائرون عشرون هنا درويش يشير إلى عشرين دولة عربية ما (عداي أنا سواي) أنا (الفلسطيني)، هنا تكمن الصورة وتتضح جليا (الازمة النفسيّة)، السائرون كلهم وراء (الوطن) يتفرجون على هذا المسلوب والمغصوب قسراً، حتى بعض أبناء الوطن يقفون عاجزين وقد يكونون متفرجين؟ أي أزمة نفسية تنتاب النفس الانسانيّة عندما تلاحظ وتراقب (الأرض – الوطن) نعشهُ

مرفوع على الايادي (المحتلة) والسائرون يقفون وهم صامتون، صورة لا تفارق درويش والتي جعلته شاعرا قلقا ملتصقا بالأرض حتى تحوّلت اشعاره مادة معرفيّة فلسفيّة تعطي القوة والارادة لأبناء جلدته بأن يقفوا بوجه الآخر اللاإنساني الذي يتمادى ويتطاول على الأنسان اينما وجد، فتصل الازمة النفسيّة غلى اوج قلقها بقوله: (تُهْتُ في قلبي على باب الكنيسة) إشارات، و ايحاءات رمزية، وقراءات مفتوحه لهذا الغموض وضياع الهوية؟ وقد يكون هذا الشخص الغريب: (كاتبٌ، عاملٌ، لاجئٌ، سارقٌ، قاتل) كلهم سواسية امام الموت فالرمزيّة الدرويشيه تخاطب (الوعي واللاوعي) النفسي الإنساني؛ ليدق ناقوس الخطر عن ما تؤل بها النفس الانسانيّة بمشاهدٍ جنائزية ترمز إلى الكثير من الغموض، والضياع، لهذه النفس البشريّة (كلهم لا يتكلمون وربما لا يحلمون) فلا كلام، ولا حلم أمام هذا الموت الذي يدب في جسد (الأرض – الوطن – المكان) اجساد بلا ارواح، عقول بلا افكار، كلها تمتلئ بهاجسٍ واحد هو هذا الانتماء إلى الأصل فـ "الحاجة إلى الإحساس بالهويّة شديد الأهمية والضرورة بحيث لا يمكن أن يظل سوياً إذا لم يجد سبيلاً ما إلى إشباعها"[٥٤] و"يكتسب المرء الإحساس بهويته الفردية، بمقدار نمو الحرية في داخله. وليست الحرية شيئاً نملكه أو يعطينا إياه الآخرون، فلا وجود لحرية من هذا القبيل"[٥٥] فالهوية ترتبط بالمكان وجوديا؛ فرسم درويش مظاهر الموت لأنه شعر بالخوف من انتزاع هذا العنصر الوجودي المكاني منه فـ"الموت الذي يعيشه صحيح كالحجر، لكنه موت مفتوح كالأفق. لا شيء يغلقه، حتى الصحراء والمقابر. حيث يتطلع يمتد جذوره، وحيث ينغرس يتوسد الأفق."[٥٦]. ويختتم درويش نصه بتحول الادوار ليبيّن عمق الغموض والضياع، وقلق الموت الذي طُبع في ذهنه (الشخص الغريب) قد تكون (جنازتي) أي قلق ينتاب الانسان عندما لا يعلم انه حي أم ميت؟ ولعلّ نتيجة هذا الشعور هو ضياع الهوية التي تعزز وجوده "إن الاحساس بالهوية الشخصية الذي يمتلكه كل واحد منا إحساس بالاستمرار عبر الزمن"[٥٧]. فأرادوا قطع تاريخه، وزمنه، وشخصيّة؛ باقتلاعه من جذوره المكانيّة. (المكان) العنصر السردي الثالث في النص عمد درويش أن يتلاعب بالمفاهيم والأدوار لهذا العنصر المكاني عندما قال: (قد تكون جنازةُ الشخص الغريب جنازتي) المحور الذي دارت من حولها الأحداث، والأزمات والصراعات... الخ، فلم يصرح درويش مباشرة؛ لأنه مفهوم يتسع، ويتطور بتبادل الادوار، والاحداث في النص الشعري حتى أصبح هذا المكان هو (الشخص الغريب؟؟) الذي يتعامل معه درويش وكأنه يرى، ويسمع، ويشاهد، كل من حوله، ولعلها متعه يتحسسها كلّ من يقرأ النص الدرويشي. وينهي درويش نصه باستدراكٍ يؤكد قلقه المستمر وازمته (المكانية) وحتمية الموت بفقدان هذا المكان فتحيا النفوس بوجوده، وتموت النفوس بفقدانه هذه رؤيا وفلسفة يبثها درويش دائما في نصوصه الشعريّة؛ لإعطاء القوة والارادة التي من اجلها يستميت الانسان من اجل وجوده المكاني، ومن غير هذا لا ينتظر الانسان الا (الموت المحتوم) عندما يقول: (لكنَّ أَمراً ما إلهياً يُؤَجِّلها لأسبابٍ عديدةْ من بينها خطأ كبير في القصيدةْ!)، فالقلق المكاني

ظلّ مهيمنا على المشهد الشعري ليصوّر للمتلقي عمق الازمه النفسيّة التي تسيطر على الافكار الانسانيّة. فقلق الموت تمحور بين (الغموض، والضياع)، ولعلّ النقطة التي تستثير الانسان وتجعله غير مستقر، ويدخل في دوامة القلق النفسي هو الخوف من ضياع (الهوية – المكان) (وليست مشكلة الإحساس بالهوية، كما تُفهم عادةً، مجرد مشكلة فلسفية، أَو مشكلة لا تتعلّق إلا بعقلنا وفكرنا. فالحاجة إلى الإحساس بالهوية تنشأ من الشرط الصميمي لوجودنا الإنساني، وهي في بعض الاحيان أقوى حتى من الحاجة إلى البقاء المادي)[٥٨]. ومما تجدر إلية الاشارة إلى أن البحث في المجال النفسي له عقبات كثير لأن "للنفس، ليس هناك وجود لنقطة ثابتة من هذا النوع – النفس وحدها يمكن أن تراقب النفس. وبالتالي من المستحيل بالنسبة لنا معرفة جوهر النفس، على الأقل ضمن الوسائل المتاحة لنا في الوقت الحاضر"[٥٩]. إنَّ البحث كشف بعض الأزمات النفسيّة المكانيّة عند الشاعر درويش، وبيان رؤيته الإنسانيّة الوجوديّة المكانيّة.

الخاتمـــة

- العلاقة بين المكان والنص الشعري علاقة متأصلة ومتجذرة؛ لأنّ المكان مادة وجوديّة، وفكريّة لدى الانسان، فالشعراء أدخلوا مفهوم المكان في نصوصهم الشعريّة؛ فكونوا علاقات وجدليات انسانيّة نفسيّة نابعة من الواقع الحياتي.
- تميز درويش عن غيره من الشعراء، انه ولد في مكانٍ قد سُلب غصباً من قوةٍ لا تعرف شيء الا لغة الموت، فكان له الاثر النفسي على شخصيتّه؛ فأنتج نصوصاً شعرية تتصف برؤيا وجوديّة نابعة من الواقع الحياتي الإنساني.
- لغة المكان والبعد النفسي عند الشاعر درويش، كشفت ملامح الازمة المكانيّة بلحاظ (لغة الذات نفسيا) فتوزعت (الذات) بين الانشطار، والانعكاس، والحوار؛ لتبيّن عمق الأزمة المكانيّة النفسيّة في النص الدرويشي.
- قلق المكان واثره النفسي تمحور حول محورين، اولهما (قلق الحياة) فتوزع القلق بين (التوتر النفسي، واللذة والالم، والاضطراب النفسي)، والمحور الثاني (قلق الموت) تمحور حول نقطتين (الغموض) و(الضياع)، ويظهر أتساع وتطور ملحوظ للأزمة المكانيّة النفسيّة في نفس الشاعر.
- لعلّ البحث النفسي في النص الشعري، ولا سيما عند شاعر كدرويش من الصعب أن يسلط الضوء عن كلّ ما تكمنه هذه الشخصيّة الشعريّة المرهفة، لكن قد تكشف بعض الأزمات النفسيّة في نصوصه الشعريّة الابداعيّة.
- تظلّ نصوص الشاعر درويش محط انظار المهتمين بالبحث الأدبي لما لها من رؤيا (فلسفيّة) و (وجوديّة) انسانيّة.

قائمة المصادر والمراجع

- **الأنا والهُوَ**، سيجمند فرويد، ترجمة: الدكتور محمد عثمان بخاتي، دار الشروق، ط٤، ١٩٨٢.
- **الإنسان الحديث في البحث عن الروح**، كارل غوستاف يونغ، ترجمة: معاني صالح، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١٦.
- **البنية النفسية عند الإنسان**، يونغ، ترجمة: نهاد خياطة، سوريا: دار الحوار، لا ط، ١٩٩٤.
- **التحليل النفسي والأدب**، جان بيلمان – نويل، ترجمة: د. حسن المودن، ط ا، ٢٠٠٨.
- **الذاكرة في الفلسفة والأدب**، ميري ورنوك، ترجمة: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٧.
- **الروح (في الإنسان والفن والأدب)**، كارل غوستاف يونغ، ترجمة: سلام خير بك، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٤.
- **السلسلة الألسنية (علم وظائف الاصوات اللغوية الفونولوجيا)**، عصام نور الدين، بيرت: دار الفكر اللبناني، ط١، ١٩٩٢.
- **الشعر وأفق الكتابة**، صلاح بو سريف، الرباط: دار الآمان (منشورات الضفاف)، ط١، ٢٠١٤.
- **الشعر والتأويل (قراءة في شعر أدونيس)**، عبد العزيز بو مسهولي، أفريقيا الشرق، لا ط، ١٩٩٨.
- **العقل الشعري**، خزعل الماجدي، الكتاب الاول، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، ٢٠٠٤.
- **القلق وإدارة الضغوط النفسيّة**، فاروق السيد عثمان، دار الفكر العربي، ط١، ٢٠٠١.
- **القلق ونوبات الذعر**، كوام مكنزي، ترجمة: هلا أمان الدين، التوزيع دار المؤلف، ط١، ٢٠٠٣.
- **الكَفّ والعَرضَ والقلق**، سيجمند فرويد، ترجمة: الدكتور محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط٤، ١٩٨٩.
- **المجتمع السوي**، إيرك فروم، ترجمة: محمود منقذ الهاشمي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٥.
- **النص القرآني وآفاق الكتابة**، أدونيس، دار الآداب للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠١٠.
- **النماذج البدئية واللاوعي الجمعي**، كارل غوستاف يونغ، ترجمة: متيم الضايع، دار الحوار، ط١، ٢٠١٦.
- **الهوية**، اليكس ميكلشيللي، ترجمة: د.علي وطفة، دمشق: دار الوسيم للخدمات الطباعية، ط١، ١٩٩٣.
- **تحولات الرؤيا في شعر محمود درويش**، أنور محمد الطورة، (اطروحة دكتوراه)، اشراف: د. سامح عبد العزيز الرَّواشدة، جامعة مؤتة (كلية الدراسات العليا)، ٢٠١٦.
- **ثنائية اللّذة والألم في الشعر العربي قبل الاسلام**، ليلى نعيم الخفاجي، اصدارت مشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية، لاط، ٢٠١٣.
- **جبران والحداثة**، راضي سالم علّوش، دار المحَّجة البيضاء، ط١، ٢٠١٢.
- **دير الملاك (دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر)**، محسن اطيمش، لا ط، لا سنه.
- **زمن الشعر**، أدونيس، دار الساقي، ط٦، ٢٠٠٥.

- **صدع النص وارتحالات المعنى**، إبراهيم محمود، حلب: مركز الانماء الحضاري، ط١، ٢٠٠٠.
- **علم نفس الشخصية**، كامل محمد محمد عويضة، بيروت: دار الكتب العالمية، ط١، ١٩٩٦ .
- **فاعِلِيَّة الخَيَال الأدَبيَّ (مُحاولة في بلاغيَّة المعرفة من الأُسطورة حتّى العِلم الوَصْفيِّ)**، سعيد الغانمي، منشورات الجمل، لا ط، ٢٠١٥.
- **في علم الكتابة**، جاك دريدا، ترجمة: انور مغيث، منى طلبة، المركز الثقافي للترجمة، ط٢، ٢٠٠٨.
- **قصيدة "مديح الظل العالي" لمحمود درويش دراسة دلالية**، إيمان جربوعة، (رسالة ماجستير) اشراف: د. امنة بنت مالك، الجزائر: كلية الآداب واللغات، ٢٠٠٩-٢٠١٠.
- **كزهر اللوز أو أبعد**، محمود درويش، رياض الريس للكتب والنشر، ط٢، ٢٠٠٥.
- **محمود درويش حالة شعرية**، صلاح فضل، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط١، ٢٠١٠.
- **مخاطبات من الضفة الأخرى للنقد الادبي**، وجيه فانوس، اتحاد الكتاب اللبنانيين، ط١، ٢٠٠١.
- **مقدمة للشِّعر العربي**، أدونيس، دار الساقي، لا ط، ٢٠٠٩.
- **هندسة المعنى في الشعر العربي المعاصر (محمود درويش انموذجا)**، محمد مراح، رسالة ماجستير، جامعة وهران، كلية الآداب واللغات والفنون، ٢٠١٢-٢٠١٣.
- **ويكيبيديا**، الموسوعة الحرة.

هوامش البحث

[١] **العقل الشعري**، ص١٠١.

[٢] **زمن الشعر**، ص٢٨٣.

[٣] **مقدمة للشِّعر العربي**، ص٩٣.

[٤] **المصدر نفسه**، ص١٠٦.

[٥] **في علم الكتابة**، ص٧٢.

[٦] ينظر: **محمود درويش حالة شعرية**، ص٧.

[٧] **التحليل النفسي والأدب**، ص١٧.

[٨] **المصدر نفسه**، ص١٩.

[٩] **محمود درويش حالة شعرية**، ص٨١.

[١٠] **الإنسان الحديث في البحث عن الروح**، ص١٩٧.

[١١] **البنية النفسية عند الإنسان**، ص٣٣.

[١٢] **المصدر نفسه**، ص٣٣.

[١٣] **هندسة المعنى في الشعر العربي المعاصر (محمود درويش انموذجا)**، ص٤١.

[١٤] **الشعر وأفق الكتابة**، ص١٧٣.

[١٥] **المصدر نفسه**، ص١٧٣.

[١٦] **النص القرآني وآفاق الكتابة**، ص١٢٥.

[١٧] **فاعِلِيَّة الخَيَال الأدَبيَّ (مُحاولة في بلاغيَّة المعرفة من الأُسطورة حتّى العِلم الوَصْفيِّ)**، ص٢٤٩.

[١٨] ينظر: **السلسلة الألسنية (علم وظائف الاصوات اللغوية الفونولوجيا)**، ص١٢٧-١٢٨.

[١٩] **مخاطبات من الضفة الأخرى للنقد الادبي**، ص٤١.

[٢٠] ينظر:**علم النفس الاجتماعي (دراسة لخفايا الانسان وقوى المجتمع)**، ص٢٩٧.

[٢١] **مقدمة للشِّعر العربي**، ص٧٠.

[٢٢] **الروح (في الإنسان والفن والأدب)**، ص١١٦.

[٢٣] **كزهر اللوز أو أبعد**، ص١٥٣-١٥٤.

[٢٤] ينظر: **التحليل النفسي والأدب**، ص[١٩] .

[٢٥] **كزهر اللوز أو أبعد**، ص[١٦٩-١٧٠].

[٢٦] **التحليل النفسي والأدب**، ص[٩٩-١٠٠].

[٢٧] ينظر: **محمود درويش حالة شعرية**، ص[١٠٢].

[٢٨] ينظر: **جبران والحداثة**، ص[١٨٧].

[٢٩] **دير الملاك (دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر)**، ص[١٧٢].

[٣٠] ينظر: **ويكيبيديا**، الموسوعة الحرة، (عنقاء).

[٣١] ينظر: **الشعر والتأويل (قراءة في شعر أدونيس)**، ص[١٧].

[٣٢] **النماذج البدئية واللاوعي الجمعي**، ص[٣٢-٣٣].

[٣٣] **كزهر اللوز أو أبعد**، ص[١٧٣-١٧٥].

[٣٤] **علم نفس الشخصية**، ص[٢٢٠] .

[٣٥] **تحولات الرؤيا في شعر محمود درويش**، ص[٢٥] .

[٣٦] ينظر: **قصيدة "مديح الظل العالي" لمحمود درويش دراسة دلالية**، ص[١٧٢] .

[٣٧] ينظر: **ويكيبيديا**، الموسوعة الحرة، (عناة).

[٣٨] **الهوية**، ص[٤٣].

[٣٩] **الكَفّ والعَرضَ والقلق**، ص[١٠٦].

[٤٠] ينظر: **القلق ونوبات الذعر**، ص[١].

[٤١] ينظر: **القلق وإدارة الضغوط النفسيّة**، ص[١٨] .

[٤٢] **كزهر اللوز أو أبعد**، ص[٦١-٦٢].

[٤٣] **الأنا والهُوَ**، ص[٣٧-٣٨] .

[٤٤] **النماذج البدئية واللاوعي الجمعي**، ص[٣٤١].

[٤٥] ينظر: **صدع النص وارتحالات المعنى**، ص[٥٦].

[٤٦] **الأنا والهُوَ**، ص[٣٨].

[٤٧] **ثنائية اللّذة والألم في الشعر العربي قبل الاسلام**، ص٣٤.

[٤٨] **محمود درويش حالة شعرية**، ص١٧.

[٤٩] **كزهر اللوز أو أبعد**، ص٦٧-٦٨.

[٥٠] **محمود درويش حالة شعرية**، ص٩١.

[٥١] **الهوية**، ص٧.

[٥٢] **المصدر نفسه**، ص٧.

[٥٣] **كزهر اللوز أو أبعد**، ص٦٨-٦٩.

[٥٤] **المجتمع السوي**، ص١٥١.

[٥٥] **المصدر نفسه**، ص٧٢.

[٥٦] **زمن الشعر**، ص٢٨٥.

[٥٧] **الذاكرة في الفلسفة والأدب**، ص١١٧.

[٥٨] ينظر: **المجتمع السوي**، ص١٥٣.

[٥٩] **النماذج البدئية واللاوعي الجمعي**، ص٢٤٩-٢٥٠.